ملامح الأسلوب الإيحائي في الخطاب النبوي

الدكتورة هند سحلول*

الملخص

إنَّ من لوازم الوقوف على ملامح الخطاب النبوي الانطلاقَ من تصوُّر صحيح لماهيَّته، منبعِه وغاياته، صورته وجوهرِه، والاعتماد على المحدِّدات السياقيَّة التي يسير البيان النبوي ضمن أُطرها.

فالحديث النبوي خطاب تعليمي يحقق الغايات التشريعية والتبيينيّة، ومن ثَمّ اختص من بين أنواع الخطاب بجمعه بين التعليم والإقناع والإمتاع تحت مَظَلَّةِ التبليغ، وقد ابتغى النبي صلى الله عليه وسلم جميع الوسائل لتحقيق غاياته، فتعدَّدت أساليبُ خطابه وفقًا لمقتضيات السياق، ووفقًا لمبدأ البلاغيين أنَّ لكل مقام مقالًا، فكانت تتراوح بين التقرير المباشر، والتعبير الإيحائي غير المباشر الذي تُستَثمر فيه الطاقات الكامنة في دلالة المفردات وصور التراكيب.

ويرمي هذا البحث إلى الوقوف على مظاهر الأسلوب الإيحائي في الخطاب النبوي المتمثِّلة في الإيحاء باللفظ، والإيحاء بالعبارة، والإيحاء بالصورة، متوخيًا –صلى الله عليه وسلم– في ذلك كله الإثارة والتشويق لتوجيه المتلقي إلى الانتباه بتحريك مشاعره واستمالته إلى المقصود.

فأما الكلمات فقد استخدمها لاستحضار حالاتٍ وجدانيَّةٍ، فلم يَعُدْ للكلمة قيمة وصفية فقط، بل قيمة إيحائية، لتطلق في ذهن القارئ صورًا وأفكارًا.

وأما الصورة فكانت تتجاوز بالعقل معناها الحرفي المادي ليحلِّق مع معانٍ أُخَر، وتفتح أمام سامعها آفاقًا من التفكير والتخيُّل.

واقتضى البحث تبيين وسائل الأسلوب الإيحائي التي تجلَّت في أمور عدة، منها: السؤال والجواب، والإلغاز والأحاجي، والإبهام في اللفظ والصورة، والتعريض.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

وقد كان الإبهام الذي غلَّف الخطاب الإيحائي بمظاهر متعددة مقصودًا على الرغم من الوضوح الذي وسم الخطاب النبوي عامَّة، وكان أهمَّ مَعْلَمٍ من معالمه.

ولئن كان الوضوح ألزَمَ صفات الأسلوب وأولاها بالرعاية، لأنه يحقِّق الغاية الأساسية وهي الإفهام، فإنَّ ثمَّةَ أمورًا أخرى جديرة أن يُقصَد إليها في اختيار الكَلِم والصور، وذلك حين نبغي مع الإفهام قَدْحَ الفِطْنة، واستنجاد الرأي في استخراج المعاني، وبعث الشعور والحماسة، وإثارة العواطف في النفوس.

وبذلك نَهَبُ الكلمات والعبارات حياةً ودلالة أقوى من دلالتها الأصلية، لتحلِّق في آفاق المعنى، وتتعمق في أغوار نفس المخاطب، محقِّقة التأثير والإقناع والإمتاع.

مقدمة:

لعلّ من أدلِّ دلائل قوة البلاغة القدرةُ على إيصال المعاني إلى ذهن المتلقِّي، بَلْهَ قلبَه وخيالَه، حتى تتملّك نفسه، وتهيمن على شعوره، فتسري في كيانه لتوجّه فكره وتغذّي يقينه، إلى أن تصبح المحرِّك العفويَّ لجوارحه. وقديمًا عرَّفوا البلاغة بأنها "لمحة دالَّة"[1].

ولا يخفى أنَّ الصدق الشعوري مع قوة الإحساس بالمعنى من الأمور البالغة التأثير في المخاطبين. ولئن كان التأثير المؤقَّت المرتبط بالتعبير الصادق المفعَم بالزخم العاطفي في مقدور الكثيرين فإنه لابدَّ من إدراك أنَّ الفضيلة تكمن في استمرار التأثير، بل تزايده على مدى الأيام، وهذه هي ميزة البلاغة النبوية التي ملكت قلوب الصحابة، فحوَّلت الأمة العربية من أمة غارقة في جاهلية جهلاء إلى أمّةٍ حاملةٍ لواءَ الحضارات.

ولا يمكن بحالٍ الكلامُ عن البلاغة النبوية بعيدًا عن قضية النبوة والرسالة، فقد لخَّص البيان الإلهي حقيقة كلامه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿وما ينطِقُ عن الهَوى، إنْ هوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم /3–4].

فكلامه صلى الله عليه وسلم كوَّنته الصبغة الإلهية وسبكته الرحمة الربانية، فأثمر بلاغة تفرَّدت وتميزت عن كلام البشر، وكان مناط تفوّقها سمة الإبلاغ التي نوَّه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارًا في خطبة الوداع بقوله: "ألا هل بلَّغت"[2].

وحين ندرك أنَّ البلاغةَ رسالةٌ لغويَّةٌ بين مرسِل ومستقبِل تؤدّي إلى عملية تواصل متَّسمة بالتأثير الوجداني والإقناع العقلي من خلال الوسائل الأسلوبية، نلمس الأهمية البالغة للوقوف على تلك الوسائل التي يوظّفها البليغ في سبيل الوصول إلى غايته من التأثير والإقناع، من خلال إيقاظ العقول الجامدة، وإثارة العواطف الهامدة.

وإنَّ مناطَ ذلك كلِّه حِرصُ المتكلِّم على البلوغ إلى كينونة السَّامع وقصدُه السُّبُلَ الكلاميَّة يذلّلها، والأساليب البلاغية يطوّعها لتصيبَ مراميَه وتحقِّقَ مرادَه.

1- نقد اشعر، ص: 74.

2- من حديث طويل في صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب من قال: الأضحى يوم النحر، 5230؛ وفي كتاب المغازي، باب حجة الوداع، 4144.

وهذا الأمران؛ المُنطَلَق والوسيلة، جلّاهما الخطاب النبوي في سائر جوانبه، فقد ظهر ذلك في ما عُرِفَ عنه صلى الله عليه وسلم من حرصٍ على تبليغ أمر ربه، ورِفقٍ بالمدعُوِّين، وشفقةٍ على خلق الله، ممَّا دعاه إلى سلوك أنجع السُّبُل للوصول إلى عقولهم، وفتح مغاليق قلوبهم ﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِن أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيكُم بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة /28] فكان ذلك كفيلًا بأن يجعل القالب النبوي سلِس المنزع طيِّع الدلالة.

وقد تنوعت أساليب الخطاب النبوي وفقًا لمقتضيات أحوال السياق ومقامات الكلام، فكان تقريريًّا مباشرًا يعتمد التصريح، أو إيحائيًا غير مباشر يعتمد التلميح.

وتوجه هذا البحث للحديث عن الأسلوب الإيحائي الذي يوظِّف الطاقات التعبيرية التي تحملها الألفاظ، ويستنفر قوى العقل، ليبرُزَ عنصر التشويق والإثارة، حيث يتكثَّف الإيحاء ويتقلَّص التصريح.

ولا يبغي هذا البحث الوقوف على الوسائل البيانية، بل يهدف إلي إظهار اسلوب الإثارة والتشويق الذي توسّل إليه عبر التكثيف في اللفظ تارةً وفي العبارة تارةً أخرى.

وقبل الدخول في تفاصيل البحث جدير أن نقدم بين يديه توضيحًا لمحدداته ، فنذكر لمامًا توضيحًا لمفهومي الأسوب والإيحاء.

الأسلوب والإيحاء:

الأسلوب لغةً: السَّطر من النخيل، والأسلوب هو الوجه والمذهب، وهو الفن، يقال: أخذ فلان بأساليب من القول، أي أفانين منه[1].

إن إطلاق لفظة (أسلوب) على السطر من النخيل يلفت إلى أن الأسلوب يقتضي نظامًا معينًا، ونسقًا محددًا من الأنساق.

تعريفه اصطلاحًا: هو طريقة اختيار الألفاظ وحُسن تأليفها للتعبير عن الأفكار والمعاني والعواطف التي تجول بذهن الإنسان، قصد الإيضاح والتأثير، وعلى هذا فالأسلوب "اختيارٌ واعٍ يسلِّطه المؤلف على ما توفِّره اللغة من سعة وطاقات"[2].

1- لسان العرب، (سلب).

2– الأسلوب والأسلوبية، المسدّي، ص: 74.

وقد كثرت الدراسات في الأسلوب، وكادت تُجمِع على تطابق ماهية الأسلوب مع نوعية الرسالة المبلَّغة مادَّةً وشكلًا، وقد تواترت قضية "مطابقة الأسلوب مع نجاعته القصوى في استنفار حساسية المستقبِل إلى أن يصبح أساس تعريف الأسلوب هو مقياس المفاجأة تبعًا لردود الفعل، ومعدن المفاجأة ومولدها هو اصطدام القارئ بتتابع جملة الموافقات بجملة المفارقات في نص الخطاب، وعلى هذا المعتمد يحدد مؤلّفو البلاغة العامة الأسلوب بحصيلة ردود فعل القارئ في استمالته لمنبِّهات النص"[1].

والمهم في هذا السياق الإشارة إلى ما لفت إليه بعض النقّاد في تعريف الأسلوب بأنه: "مجموع الطاقات الإيحائية في الخطاب الأدبي، وذلك أنَّ الذي يميِّز هذا الخطاب هو كثافة الإيحاء وتقلُّص التصريح، وهو نقيض ما يطَّرد في الخطاب العادي"[2]. وهذا ما يقودنا إلى تعريف الإيحاء الذي تفرضه ماهية الأسلوب تبعًا لمقتضى الخطاب.

فالإيحاء لغةً: مشتق من وحى، والوحي: الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام، والكلام الخفي، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك، وأوحيت إليه الكلام ووحيت هو أن تكلمه بكلام تخفيه[3].

ولا ينحصر الإيحاء في المعنى المعجمي للكلمات، بل فيما تملكه من طاقات تمثيلية، فضلًا عن الإيحاء المترتِّب على الأنماط الأسلوبية وظلالها المرتبطة بها، ومن ذلك أساليب الاستفهام والأمر والتعجب والتقديم والتأخير وغير ذلك.

والغرض من الأسلوب الإيحائي تلطيف المعنى المراد في نفس السامع أو المقصود به، إذ التعبير بطريق غير مباشر يعطي المسألة عمقًا معنويًا، ويكسوها جمالًا ويكسبها نكتًا وفوائد لا تتحقق بالتعبير المباشر[4].

1– نفسه، ص: 84.

2- المسدي في الأسلوب والأسلوبية، ص: 95؛ وانظر: الأسلوب، لأحمد الشايب، ص: 40.

3– لسان العرب، (وحي).

4- انظر: الأسلوب، لأحمد الشايب، ص: 42.

أولًا: مظاهر الأسلوب الإيحائي في الخطاب النبوي:

تشكَّلت بنية الخطاب الإيحائي النبوي في أُطُر متعددة، ولم تخرج في سائر مظاهرها عن الإيجاز واللمحات الخاطفة، وأسهم كلٌّ **من اللفظ والتركيب والصورة** في التشكيلات الأسلوبية الإيحائية، ومن ثَمَّ وُظِّفت طاقاتها التعبيرية في تأدية المعاني، فضلًا عن الإثارة والتشويق في سبيل التأثير والإقناع.

1. الإيحاء باللفظ: والمقصود به تلك الكيفيات الدقيقة في استخدام اللفظ، وتوظيفه في الإثارة واستنفار قوى العقل لدى المتلقي.

* فمن ذلك استعمال اللفظ الواضح المألوف في معناه، الغريب المبهَم في سياقه ابتغاءَ التشويق إلى المراد.

ومثاله ما رواه عمران بن حُصَين رضي الله عنه إذ قال: جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلّم، فقال: السَّلامُ عَلَيكم، فَرَدّ علَيه، ثمَّ جَلَسَ، فقالَ: "عَشرٌ"، ثمَّ جاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلامُ عَلَيكُم ورَحمةُ اللهِ، فَرَدَّ عَلَيه فجَلَسَ، فقالَ: "عِشْرُون" ثمَّ جاءَ آخَرُ فقالَ: السَّلامُ عَلَيكُم ورَحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُه، فَرَدَّ عَلَيه فجَلَسَ، فقالَ: "ثَلاثُون". قالَ: وفي شاهدٍ لهذا الحديث عن مُعاذِ بنِ أنسٍ الجُهَنيِّ رضي الله عنه قال: ثم أتى آخرُ، فقالَ: السَّلامُ عَلَيكُم ورَحْمَةُ اللهِ وبركاته ومَغْفِرَتُه، فقالَ: "أربَعون" ثم قال: "هكَذا تَكُونُ الفَضَائلُ"[1].

واللافت في هذا الحديث أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم استغنى بالإشارة عن التصريح بالمعنى كاملًا، فحين أراد بيان أنَّ تزايُدَ المثوبات بكل لفظ يزيده المسلم[2] اكتفى بالإشارة معوِّلًا على فهم السامع.

ولا يخفى ما للإشارة من بلاغة وأثر إيحائي، وذلك من خلال الحذف الذي هو أحد مظاهرها [كما نجد عند الجاحظ] فقد عدّ الجاحظ الإشارة من أصناف الدلالات على المعاني[3]، وربطها بالوحي والحذف، وأنشد قول الشاعر:

يرمُون بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارَةً وَحْيَ المَلاحِظِ خِيفَةَ الرُّقَبَاءِ

1- سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب كيف السلام، (5195)و(5196).

2- عود المعبود شرح سنن أبي داود 342/26.

3- البيان والتبيان، 76/1

وقال: "ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطًا وزاد في الكلام"[1].

ومثله ما رواه أبو قَتَادةَ بنُ رِبْعيٍّ الأنصاريُّ رضي الله عنه قال: إنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُرَّ عليه بجنازةٍ فقالَ: "مُسْتَرِيحٌ ومُسْتَرَاحٌ منه[2]"، قالوا: يا رسولَ اللهِ! ما المُستَرِيح وما المُستَراح منه؟ قال: "العَبْدُ المُؤمِنُ يَسْتَرِيحُ مِن نَصَبِ الدُّنْيا وأَذاها إلى رَحْمَةِ اللهِ، والعَبْدُ الفاجِرُ يَستَرِيحُ منهُ العِبادُ والبِلادُ والشَّجَرُ والدَّوَابُّ"[3].

لقد أومأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى المعنى إيماءً بقوله: "مستريح ومستراح منه"، ولم يزل المعنى المراد غير واضح في أذهان الصحابة حتى سألوه، فجاء الجواب الشافي الجامع بمعناه أصنافَ الناس كافة، إذ لم يخصص بالمعنى ما استدعاه الموقف من كلام، بل انطلق إلى العموم وبيان أن الموتى كلهم قسمان قسم مستريح وهو المؤمن، وقسم مستراح منه وهو الكافر.

*ومن ذلك استعمال اللفظ غامض الدلالة، حين يخرج اللفظ عن أصل معناه في العرف اللغوي ليضفي عليه النبي صلى الله عليه وسلم دلالة جديدة، ويبتكر له معنى لم يسبق إليه، ويندرج ذلك تحت ما يطلق عليه "الأصالة" التي عرّفها بعضهم فقال: "ويراد بالأصالة في الأسلوب بناؤه على ركنين أساسيين من خصوصية اللفظ وطرافة العبارة.... وملاك الأصالة أن لا تكتب كما يكتب الناس"[4].

ومثال ذلك إطلاقه صلى الله عليه وسلم كلمة "المفرِّدون" على ما لم يكن معهودًا في عرفهم اللغوي، فالعرب ما كان ليفوتهم إدراك المعنى الأصلي للكلمة، لكن توقَّفوا –وهم الفصحاء الأقحاح – عندما طرقت أسماعهم في استخدام النبي صلى الله عليه وسلم لها

1- الحيوان 94/1.

2- وفي توجيه الإعراب نقول: مستريح: خبر لمبتدأ محذوف قدَّره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه (6147) و صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه (950).

4- دفاع عن البلاغة، ص: 81.

في قوله: "سَبَقَ المُفَرِّدُون" وهذا حتمًا ما شوَّق نفوسهم وأثارهم لمعرفة مالم يفهموه، فبادروا إلى سؤاله: "وما المُفَرِّدُون؟ يا رسولَ اللهِ" فأجابَهم: "الذَّاكِرُونَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِرات"[1].

قال ابن قتيبة: وأصل المفرِّدين الذين هلك أقرانهم، وانفردوا عنهم، فبقوا يذكرون الله تعالى[2]. فهم المفردون المعتزلون عن الناس الذين أفردوا أنفسهم بالتبتُّل إلى الله، وقد سبقوا غيرهم إلى الدرجات العلى[3].

ونظيره ما رواه عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو قالَ: قِيل لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قالَ: كُلُّ مَخْمُومِ القَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ" قالوا: صَدوقُ اللِّسانِ نعرفُه، فما مَخْمُومُ القَلبِ؟ قال: "هو التَّقيُّ النَّقيُّ، لا إثْمَ فيه ولا بَغْيَ، ولا غِلّ ولا حَسَد"[4].

*ومن ذلك أن يكون غموض اللفظ بسبب ارتباطه بأمر غيبي، فيذكره النبي صلى الله عليه وسلم وهو على علم بجهالة المتلقِّي ما يريد، فيذكره دون تصريح بغيبية دلالته ليلفت السامع إليه، ويثير شوقه إلى معرفة حقيقة مراده. ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تَعَوَّذوا بالله من جُبِّ الحَزَن "قالوا: يا رسول الله: وما جُبُّ الحَزَن؟ قال: وادٍ في جَهَنَّم، تَتَعَوَّذ منه جهنَّمُ كلَّ يومٍ مِئةَ مرَّة، قلنا: يا رسول الله، ومَن يدخُلُه؟ قال: القُرَّاء، المُرَاؤون بأَعْمالِهِم"[5].

ومثله قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا مَرَرْتُم بِرِياضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا".

لقد استدعى هذا الحثُّ على أمر غريب منه [صلى الله عليه وسلم] تساؤلًا عن تلك الرياض، وهم لا يزالون في الحياة الدنيا، ومن ثَمَّ قال أبو هريرة: "يا رسولَ اللهِ، ما رِياضُ الجَنَّةِ؟ قال: "المَسَاجِدُ"، قال: قلت: وما الرَّتْعُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: "سُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ "[6]"

1- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى (2676).

2- شرح النووي على مسلم 4/17.

3- فيض القدير 49/11.

4- سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الرياء والسمعة، (2383).

5- سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في الياء والسمعة، (2383).

6- سنن الترمذي، كتاب الدعوات (3509).

وهكذا يسلك النبي صلى الله عليه وسلم أسلوب التصريح بعد الإبهام من خلال الإيحاء بالمعنى المراد دون إظهاره، ليأتي التصريح بعد أن تتوق النفس للمقصود من خلال تفسيره صلى الله عليه وسلم، هذا التفسير جعله البلغاء بابًا من أبواب الفصاحة. قال الصنعاني: "ومن أنواع الفصاحة ما يسمونه التفسير، والتفسير ما يبتدئ به القائل مجملًا"[1] وهو أن يأتي المتكلم في أول الكلام بمعنى لا يستقل الفهم بمعرفة فحواه دون أن يفسر[2]".

وفي ذلك ما فيه من بلاغة وإيضاح، فضلًا عن ماله من أثر في النفس بما يحمله إليها من إيحاء وإلماح.

2. الإيحاء بالعبارة:

وذلك حين يبعث الحركة في المعاني والدلالات، ويولِّدها لتبقى في حالة تداعٍ، فترتهن جماليات الشكل بالوظيفة الدلالية التي تولدها إيحاءات العبارة، وعند ذلك لا يكون لأجزاء الجملة قيمة وصفية، وإنما قيمة إيحائية، إذ تولد في ذهن القارئ صورًا، وتطلق سيلًا من التساؤلات وفرض الاحتمالات، شوقًا إلى معرفة الحقيقة.

ونرصد في الخطاب النبوي طريقتين لإثارة المتلقي في تغليف العبارة بالإيحاءات:

* فتارة يأتي بالعبارة كاملة، وهي على وضوح ظاهرها عجيبة الدلالة، مخالفة لبدهيات الأمور، تواري وراء ألفاظها معنى مرادًا، غير مصرَّح به ابتداء، فتثير في النفس رغبة في الكشف عن المقصود والتصريح به.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ مِن أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيهِ"[3]

لقد أطلق النبي صلى الله عليه وسلم هذه العبارة وهو يعلم يقينًا أنها لن تلتقي ومسامعهم إلا وهم مستغربون متعجِّبون، وغير خافٍ عليه أثر إطلاق عبارته من استهجان واستبعاد، وهذا هو ما استقبلوا به كلامه إذ قالوا: "وكيفَ يلعَنُ الرَّجُلُ وَالدَيه؟!"

1- الرسالة العسجدية، ص: 149.

2– تحرير التحبير، ص: 185.

3- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه (5628).

وهنا تكتمل الصورة وتتضح أبعادها بقوله: "يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّه فَيسُبُّ أمَّه" بعد أن قدَّم بين يديها إيحاءً بما يريد من شناعة عاقبتها.

ومن ذلك ما أثاره قوله صلى الله عليه وسلم في قوله: "انْصُرْ أَخاكَ ظَالمًا أو مَظْلُومًا" إذ لا يكاد السامع يستقبل قولَه صلى الله عليه وسلم: "ظالمًا" إلا وتتداعى عنده التساؤلات: كيف ينصر الظالم، أم كيف يستوي الظالم والمظلوم؟!! ثم يأتي جوابه صلى الله عليه وسلم مهدئًا للنفس، حالًّا للإشكال، مقويًا للمعنى فقد سألوه، فقالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: "تأخُذُ فوقَ يَدَيه"[1] وفي رواية: "تَحْجزُه وتَمنعُه مِن الظُّلمِ فإنَّ ذلك نَصْرُه[2]".

إن طريقة عرض النبي صلى الله عليه وسلم للمعنى تعدُّ ضربًا من الإلغاز الذي يعرف بأنه تعبير المتكلم عن الشيء الذي يريده بعبارات يدل ظاهرها على غيره وباطنها عليه.[3]

* وتارة تأتي العبارة مكتملة، فيذكر صلى الله عليه وسلم شطرًا من الكلام، ويمسك عن تمامه ليَذَر السَّامع في عالم الممكنات، ثم يأتي تصريحه صلى الله عليه وسلم ليكسب المعنى قوة، وأثره جمالًا وجلالًا.

ومن ذلك ما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال: انتهيتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول في ظلِّ الكعبة: "هُمُ الأَخْسَرونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ، هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الكَعْبَةِ" قلتُ: ما شَأني؟ أيُرَى فيَّ شيءٌ؟ فجلست إليه وهو يقول، فما استَطعتُ أن أسكُتَ، وتغشَّاني ما شاءَ اللهُ، فقلت: مَن هُم بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللهِ؟ قال: "الأَكْثَرُون أمْوالًا، إلا مَن قالَ هكذا وهكذا". يعني عن يَمِينِه وشماله وبينَ يَدَيه ومن خَلْفِه.[4]

1- صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا (2312).

2- صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إن خاف عليه القتل أو نحوه، (6552).

3- انظر: تحرير التحبير، 579.

4- صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم (6262).

لقد فعلت هذه العبارة ما فعلت في نفس أبي ذر رضي الله عنه، وكذلك في نفس سامعها يستقبلها لأول وهلة، والنبي صلى الله عليه وسلم قاصد إلى ذلك التأثير إذ غيّب المراد إلى أن أحدثت عبارته في النفس إثارة، ثم صرَّح به بعد أن استنفر القلب والوجدان والعقل.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "والله لا يُؤمِنُ، واللهِ لا يُؤمِنُ، واللهِ لا يُؤمِنُ" إذ ينتهي هنا المقال، ويتوقَّف التبيان انتظارًا لرد فعل المتلقي، وإيغالًا في التأثير فيه، ثم يصرّح صلى الله عليه وسلم بعد أن سئل: مَن يا رسولَ الله؟ فيقول: "الذي لا يَأمَن جارُه بوائقَه"[1].

إنَّ لهذه الطريقة في تبليغ المعنى أهميَّةً أشار إليها الجرجاني بقوله: "من المركوز في الطبع أنَّ الشيء إذا قيل بعد طلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى، وبالمزيَّة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف"[2].

3. الإيحاء بالصورة:

من المعلوم أنَّ الخطاب النبوي وظَّف الوسائل البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها لتمكين الحقائق التي جاء بها ولإقرارها، وأنه ضرَبَ بسَهم وافر في هذا المضمار، إذ كان يتَّخذ الوسيلة الجمالية مطيّة لتمكين هذه الحقيقة، وقد أسلفنا أنه ليس من غاية البحث الوقوف على الصور البيانية، بل الوقوف على الطاقة الإيحائية التي تنبثق من الصورة، وعلى البعد التشويقي لها، وصولًا لترسيخ المعنى، وتوظيف الخيال للإثارة والمتعة، فممَّا لا شك فيه أن "إثارة الخيال عنصر ضروري في الفن القولي، وقد أدت مهمة رفيعة في الغيث المحمدي، وكانت هذه الإثارة تنطلق من الواقع، وتحتكم إلى عنصر المشابهة، ولا تقصد الخيالات لذاتها، بل لها وظائفها الجليلة، مما يفيد أن الخيال أو التصور، أو إثَارة الخيال عنصر مساعد للفكرة غير طاغٍ عليها"[3].

1– صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (5670).

2- أسرار البلاغة، ص: 100.

3– الصورة الفنية في الحديث النبوي، ص: 117.

ونقف هنا على ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ إذ قال يومًا لأصحابه: "إنَّ مِن الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ ورَقُها، وإنَّها مثلُ المُسلمِ، فَحَدِّثُوني ماهِي؟" قال: فَوَقَعَ النَّاسُ في شَجَرِ البَوادي، قال عبد الله: ووَقَعَ في نفسي أنَّها النَّخلة، فاستحيَيت، ثم قالوا: حدِّثْنا ما هيَ يا رسولَ اللهِ، قال: "هيَ النَّخلَةُ".[1]

لقد لفت النبي صلى الله عليه وسلم انتباههم وأعدَّ أذهانهم لتلقي الجواب الصحيح بعد استثارة مداركهم، ويشير قول ابن عمر رضي الله عنها: (فوقع الناس في شجر البوادي) إلى ما أثاره النبي صلى الله عليه وسلم في نفوسهم من رغبة في الوقوف على المعنى المراد.

وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يثبت العديد من الصفات للمؤمن، فعدل عن التصريح بها إلى الإشارة إليها رمزًا وإلغازًا، وبذلك أثبت للكلام مزيَّة وفضيلة لا تتأتى بالتصريح.

يقول الجرجاني: "وكذلك إثباتك الصفة للشيء تنبيهًا له إذا لم تُلقِه إلى السامع صريحًا، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة، وكان له من الفضل والمزيَّة، ومن الحسن والرونق مالا يقلُّ قليله، ولا يُجهَل موضع الفضيلة فيه".[2]

ومن الأحاديث التي تُظهر الاستعانة بالمحسوسات للإيحاء بالمعنى قوله صلى الله عليه وسلم: "أَرَأَيتُم لو أنَّ نَهْرًا بِبابِ أَحَدِكم يَغْتَسِلُ منه كلَّ يومٍ خمسًا، ما نقولُ ذلك يُبقي مِن دَرَنه؟"

وهنا تكمن الإثارة والتشويق لمعرفة المراد من طرح هذا السؤال الذي جعله صلى الله عليه وسلم تمهيدًا بين يدي مراده، فاستثار إقرارهم ببداهة الجواب، إذ قالوا: "لا يبقى من درنه شيء" ليستدرجهم إلى الإيقان بالحقيقة التي سينبئهم بها، وليقول: "فَذلِك مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بهِنَّ الخَطَايا"[3].

1- صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا (61).

2- دلائل الإعجاز، ص: 237.

3- صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة، (667).

فالتشويق يكمن في تقديم المشبَّه به على المشبَّه، واستعراضه بالرؤية، ليعطي الفاعلية للصورة القائمة على حال متحركة.

ونجد الاستعانة بالماديات الموحية بالمعاني الذهنية في قوله صلى الله عليه وسلم: "أَيُحِبُّ أَحَدُكُم إذا رَجَعَ إلى أَهْلِهِ أَنْ يَجِدَ ثلاثَ خَلِفاتٍ[1] عِظامٍ سِمانٍ؟" قلنا: نعم، قال: "فَثَلاثُ آياتٍ يَقرأُ بهِنَّ أحدُكُم في صَلاته خَيرٌ له من ثلاثِ خَلِفَاتٍ عِظامٍ سِمانٍ"[2].

لقد توخَّى النبي صلى الله عليه وسلم معنى الإثارة والتشويق من خلال الصورة الحسية، فنجد التعبير في هذا الحديث يتدرج بين مرحلتين، مرحلة حسية تكمن في تجسيم المعنى، لتتجاوز إلى المرحلة النفسية التي أُثارتها المرحلة الأولى بظلالها وإيحاءاتها. فمكوّنات النص التجسيمية أثارت مشاعر التلهُّف للحصول على ما تبتغيه النفس من مكاسب مادية. والأثر النفسي القابع وراء اللفظ ألقى بظلاله على المعنى المتجلِّي بعد استيعاب الصورة الحسية.

ثانيًا– وسائل الأسلوب الإيحائي في الخطاب النبوي:

الحديث النَّبويُّ الشَّريف خِطاب تعليميٌّ يهدف إلى الابانة والتبليغ وتمكين الحقائق، وجَمْعُه بين التعليم والإقناع والإمتاع تحت مَظَلَّة التبليغ جعل له خصوصية بين أنواع الخطاب المختلفة، ومن ثَمَّ تنوَّعت الأساليب التي توسَّل بها إلى تمكين الأمور التشريعية والحقائق الغيبية في نفوس المخاطبين.

وقد ظهر مما سبق أهمية الإثارة والتشويق في الإيحاء بالمعاني لترسيخها وتمكينها، ومن ثم كان لابد من التعرف على الوسائل التي اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل ذلك، فنذكر:

1- الخلفات: بفتح الخاء وكسر اللام، الحوامل من الإبل إلى أن يمضي عليها نصف أمدها. ثم هي عشار. انظر: اللسان (خلف).

2– صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وتعلمه (802).

1. السؤال والجواب:

أي المراجعة في اصطلاح البلاغيين الذين عرَّفوها بقولهم: "أن يحكي المتكلم مراجعةً في الحديث بينه وبين غيره بأوجز عبارة، وأرشق سبل، وألطف معنى، وأسهل لفظ"[1].

إن للاستفهام مزيَّة في تحقيق الإثارة إلى المعرفة، لتضمُّنه ما يُشتاق إلى معرفته، من خلال توجيه المتلقِّي إلى الانتباه، وتحريك مشاعره نحو أمر محبوب يرغب فيه، أو أمر مذموم يرغب النأي عنه.

وقد تنوعت أساليب الخطاب الاستفهامي في الحديث النبوي؛ فنجد النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يخاطب الصحابة –أحيانًا– وقَد خلت أذهانهم من الإجابة، فيطرح سؤاله من باب التشويق لمعرفة الجواب.

ومن ذلك ما جاء في حديث زيدِ بنِ خالدٍ رضي الله عنه إذ قالَ: خَرَجْنا معَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عامَ الحَديبية، فأصابَنا مطرٌ ذات ليلة، فصلَّى لنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيبية، على إثْرِ سماءٍ كانت من الليلة، فلمَّا انصَرَفَ أقبلَ على النَّاسِ فقالَ: "هَل تَدرُونَ ماذا قالَ ربُّكم؟" قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: "أَصبَحَ مِن عبادي مُؤمنٌ وكافرٌ، فأَمَّا مَن قالَ مُطِرنا بفَضْلِ اللهِ ورَحْمَته فَذلك مُؤمِنٌ بي وكافِرٌ بالكَوكَبِ، وأمَّا مَن قالَ: بنَوءِ كذا وكذا فذلكَ كافِرٌ بي ومُؤْمِنٌ بالكَوكَب"[2].

وقد يكلّمهم بما لا يعرفون وما لا يفهمون المراد منه استثارةً لتساؤلهم وتشويقًا لهم وإثارة لفضولهم ليطلبوا منه التوضيح.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "أيَعْجَزُ أَحَدُكُم أن يكونَ مثلَ أبي ضَمْضَمٍ؟" قالوا: ومَن أبو ضَمْضَم؟ قال: رجلٌ فيمَن كانَ قبلَكم....[3]

1- تحرير التحبير، ص: 590.

2- صحيح البخاري، كتاب صفة الصلاة،، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (810) وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء، (71).

3- سنن أبي داوود، كتاب الأدب، باب ما جاء في الرجل يحلل الرجل قد اغتابه، (4887).

وقد جاء التشويق من خلال السؤال على عدة أوجه:

* فتارة يطرح النبي صلى الله عليه وسلم أسئلة في أمور معلومة ليؤكِّدها لهم ويستدرجهم إلى المعنى الذي يريد، ومن ذلك ما رواه أبو بَكرَة رضي الله عنه في خطبته صلى الله عليه وسلم لأصحابه في خطبته عام حجَّة الوداع: "أيُّ شَهْرٍ هذا؟" قلنا: اللهُ ورسولُه أعلَم، فسكتَ حتى ظنَنَّا أنَّه سيُسَمِّيه بغَير اسمِه، قال: "أَلَيسَ ذا الحجَّة؟" قلنا: بلى، قال: "أيُّ بَلَدٍ هذا؟" قُلنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، فسكت حتى ظننَّا سيُسَمِّيه بغَير اسمِه، قال: "أَلَيسَ البَلدةَ[1]؟" قلنا: بلى، قال: "فأيُّ يومٍ هذا؟" قلنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، فسكتَ حتى ظننَّا أنه سيُسَمِّيه بغَيرِ اسمه، قالَ: "أليسَ يومَ النَّحرِ؟" قلنا: بلى، قال: "فإنَّ دِماءَكُم وأَمْوالَكُم وأَعْراضَكُم عَلَيكُم حَرَامٌ...".[2]

إنَّ قول الصحابة: "حتى ظننَّا أنه سيسمِّيه بغير اسمه" دليل على أنه يسألهم عن أمر هو عندهم من البدهيات، لكنه جعله توطئة لبيان خطره وأهميته وعظمة حرمة الدماء والأعراض والأموال .

* وتارة يسألهم عن أشياء يعرفونها وهو يريد أن يغيِّر ما وقر في أذهانهم بشأنها، فيصحِّح نظرتهم إليها بشكل غير مباشر، ثم يجيبهم ويفاجئهم بخلاف ما يعلمون ويعُون.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :"ما تَعُدُّون الرَّقوبَ فيكم؟" قال: قلنا: الذي لا يُولَد له، قال: "لَيسَ ذلك بالرَّقُوبِ، ولكنَّه الرَّجُل الذي لم يُقَدِّمْ من وَلَدِه شَيئًا"، قال: "فَمَا تَعُدُّون الصُّرَعَةَ فِيكم؟ "قال: قلنا: الَّذي لا يَصْرَعُه الرِّجالُ، قال: "لَيسَ بذلك، لكنَّه الَّذي يَمْلِكُ نَفْسَه عِنْدَ الغَضَبِ"[3].

ومثله قوله صلى الله عليه وسلم :"أَتَدْرُونَ مَن المُفْلِسُ؟" قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرْهَم له ولا مَتاع، فقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي مَن يَأتي يومَ القِيامةِ بِصَلاةٍ وصِيامٍ وزَكاةٍ، ويَأْتي وَقَدْ شَتَمَ هذا، وَقَذَفَ هذا، وَأَكَلَ مالَ هذا، وَسَفَكَ دَمَ هذا،

1- البلدة: اسم لمكة المكرمة.

2- صحيح البخاري، كتاب الأضاحي باب من قال: الأضحى يوم النحر، (5230).

3- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، (2608).

وَضَرَبَ هذا، فيُعْطِي هذا مِن حَسَنَاتِه، وهذا مِن حَسَنَاتِه، فإنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُه قبلَ أن يَقْضِيَ ما عليه أُخِذَ من خَطَاياهم فطُرِحَت عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ"[1].

* وتارة يسألهم عن أمور لا يعرفونها ليحثَّهم على طلب معناها.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "أيَعْجزُ أحدُكُم أَن يكسِبَ كلَّ يومٍ ألفَ حَسَنَةٍ؟" فسأله سائلٌ من جُلَسائه: وكيف يَكسِبُ أحدُنا ألفَ حَسَنةٍ؟ قال: "يُسَبِّحُ مِئَةَ تَسْبِيحةٍ فتُكْتَبُ له ألفُ حَسَنةٍ، أو يُحَطُّ عنه ألفُ خَطِيئةٍ"[2]

ومنه ما رواه أبو سعيد الخُدْرِيُّ رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أَيَعْجَزُ أَحَدُكُم أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ القُرآنِ في لَيلَةٍ؟" فشقَّ ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يُطيقُ ذلك يا رسولَ اللهِ؟ فقال: "اللهُ الواحِدُ الأَحَدُ ثُلُثُ القُرآنِ"[3].

إنَّ استثارة المتلقي لاستخراج الجواب وسيلة ناجعة في تحريضه على التفكير وشحذ ذهنه وحواسه وتهيئته لتلقِّي الحقيقة بشوق وإقبال.

2. الألغاز والأحاجي:

وهنا يكون إدراك الفكرة المجرَّدة من خلال المكوِّنات الماديَّة الملموسة التي يستوعبها القارئ أولًا من خلال حواسِّه الخمسة بصفتها المنافذ المؤدِّية إلى العقل، الذي يلتقط الفكرة من خلال إحداها أو منها مجتمعة، ثم يشرع في إدراك أبعادها وأعماقها المختلفة. إنه غموض يحتاج إلى جهد وإمعان نظر كي يفك رموز الكلام ويدرك دلالاته وإيحاءاته وإشاراته غير المفصح عنها[4].

وقد أدرك العلماء أهميَّة الألغاز في ترسيخ المعنى وشحذ الفكر للوصول إلى خفايا الأمور. قال ابن وهب في اللغز: "هو قول استعمل فيها اللفظ المتشابه طلبًا للمُعَايَاة والمُحاجَّة، والفائدة في ذلك في العلوم الدنيوية رياضة الفكر في تصحيح المعاني

1- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم،، (2581).

2- صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، (2698).

3- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل "قل هو الله أحد" (4727) وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة "قل هو الله أحد" (811).

4- انظر: موسوعة النظريات الأدبية، ص: 300.

وإخراجها من المناقصة والفساد إلى معنى الصواب والحقِّ، وقدح الفطنة في ذلك، واستنجاد الرأي في استخراجها[1].

وأدخل ابن رشيق اللغز في باب الإشارة فقال: "ومن أخفى الإشارات وأبعدها اللُّغز، وهو أن يكون للكلام ظاهرٌ عجيبٌ لا يمكن، وظاهرٌ ممكنٌ عجيب"[2].

وهذا المعنى الذي ذكره ابن رشيق نتمثَّله في قوله صلى الله عليه وسلم: "سَبَقَ دِرْهَمٌ مِئَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ" إذ يعجب السامع عند ما يسمع هذا الكلام لأنه خلاف المألوف، وإذ بالبيان النبوي يفكُّ رموز هذا اللغز بعد أن تعجَّب الصحابة وقالوا :وكيفَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: "كانَ لرَجُلٍ دِرْهَمان، تَصَدَّقَ بأَحَدِهِما، وانْطَلَقَ رَجُلٌ إلى عُرْضِ[3] مالِهِ، فأَخَذَ منه مِئَةَ ألفِ درهمٍ فَتَصَدَّقَ بِها"[4].

وتتجلَّى الإثارة حين يطلب المتكلم من المتلقّي استخراج المعنى بحدسه وحزره، وهو ما يطلق عليه الأحجية.

قال ابن الأثير: "وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازًا ولا يفهم من عرضه"[5].

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "أيُّكُم مالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إلَيه مِن مالِهِ؟" إنَّ هذا المعنى عجيب قبعت في ظلاله حقيقة لم يُرِد النبي صلى الله عليه وسلم تقريرها مباشرة بل طرح هذا السؤال ليثير استغرابهم وتعجُّبهم وليقولوا: يا رسول الله! ما منَّا إلا ومالُه أحبُّ إليه. فيسارع إلى التصريح بما أراد قائلًا: "إنَّ مالَه ما قَدَّمَ ومالُ وَارِثِه ما أَخَّرَ"[6].

لقد استثمر النبي صلى الله عليه وسلم عنصر مفاجأة السامع بما يطرح وصولًا إلى التأثير فيه، وهذه المفاجأة هي معيار لقيمة الأسلوب، حيث إنَّ "قيمة كلِّ خاصِّيَّة أسلوبيَّة

1- البرهان، ص: 147.

2- العمدة: 307/1.

3- عرض ماله: أي من أي جانب منه من غير تعيين.

4– سنن النسائي، كتاب الزكاة، باب جهد المقلّ، (2527).

5- المثل السائر، 224/2.

6- صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما قدم من ماله فهو له، (6077).

تتناسب مع حدَّة المفاجأة التي تُحدثها تناسبًا طرديًا، بحيث كلما كانت غير منتظرة كان وقعها على نفس المستقبِل أعمق"[1].

وأحيانًا يقصد النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأحجية مختبرًا الصحابة في الوصول إلى الحقيقة، ونجد ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: " إنَّ مِن الشَّجَر شَجَرَةً، وإنَّها مَثَل المُسْلِم، فَحَدِّثُوني ما هِي ....."[2]

إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يأتِ إلى الفكرة يقرِّرها تقريرًا مباشرًا، بل أفرغها في قالب إيحائي غير مباشر، ابتغي من ورائه اختبارًا لأفهامهم، وترغيبًا لهم في الفكر وتدبُّر الأمر. وقد ظهر انفعالهم جرَّاء سؤاله إياهم، "فوقع الناس في شجر البوادي". وبعد أن حقق الغاية صرَّح بعد الإلغاز بقوله: "هي النَّخلة".

3. الإبهام في اللفظ والعبارة:

والإيحاء هنا لا ينطلق من دلالة كلمة، بل يعود إلى قيمة استعمالية تستند إلى وظيفتها التمثيلية، فنجد التلويح إلى معنى لا يستقلُّ الفهم بمعرفة فحواه دون أن يُفَسَّر.

وقد سلك النَّبي صلى الله عليه وسلم سبيل الإبهام كثيرًا، إثارة وتشويقًا، ومن ذلك قوله في النِّساء: "يَكْفُرْن" فيما رواه ابن عبَّاس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُرِيتُ النَّارَ فإذا أكثَرُ أَهْلِهَا النِّساءُ، يَكْفُرْنَ"، قيل: أيَكْفُرْنَ باللهِ؟ قال: "يكفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحسَانَ، لو أحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدَّهْرَ ثمَّ رأَتْ شيئًا قالت: ما رَأَيتُ مِنكَ خَيرًا قَطُّ"[3].

لقد غُلِّفَت هذه الكلمة بظِلال مدلولها اللغوي الذي أراده النبي صلى الله عليه وسلم، لكن الذي يتبادر للنفس أولًا معنى الكفر المُنافض للإيمان بالله، وهنا يتولَّد الإيحاء بالمعنى الذي تنفر النفس منه وهو الكفر، لينتقل هذا النفور إلى المعنى الذي أراده صلى

1- الأسلوب والأسلوبية، ص: 84.

2- سبق تخريجه.

3- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب كفران العشير، وكفر بعد كفر، (29) وصحيح مسلم، كتاب العيدين، (884).

الله عليه وسلم وهو (نكران العشير)، فتحقَّق مراده من الحثِّ على اتِّقاء النُّكران للمعروف المنهيّ عنه في هذا المقام كالحرص على اتِّقاء الكفر بمدلوله المعروف.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ". فالمعنى في ظاهره مبهَم، إذ إنَّ أول ما يتبادر إلى الذهن غرابة جعل البيوت مقابر، لكن يزول الإبهام بتصريحه صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الشَّيطانَ ينفُرُ من البَيتِ الذي تُقْرَأُ فيه سُورةُ البَقَرة"[1]. ليظهر المراد وهو: لا تكونوا كالموتى في القبور عارين عن القراءة والذكر، غير منفِّرين للشيطان. فأمرهم بقراءة القرآن والعمل به مُراغمة للشيطان.

ومن ذلك الإشارةُ إلى المعنى والإلماح إليه من خلال اللفظ المُبهَم، ومثاله ما رواه أنس رضي الله عنه إذ قال: مُرَّ على النَّبي صلى الله عليه وسلم بجنازةٍ، فأثْنَوا عليها خيرًا، فقال: "وَجَبَتْ" ثم مَرُّوا عليه بأخرى، فأثنَوا عليه شرًّا، أو قال غير ذلك، فقال: "وَجَبَتْ" فقيل: يا رسول الله، قلت لهذا: وَجَبَتْ، ولهذا: وَجَبَتْ؟! فقال: "شَهادَةُ القَومِ، المُؤمِنون شُهَداءُ اللهِ في الأرضِ"[2].

لقد ألمح إلى الأمر وأبهم الدلالة عليه ليشوِّقهم ولتتوق نفوسهم لإدراكه.

والمدقِّق لهذا الأسلوب التعبيري النبوي لا يجد له نظيرًا في أسلوب القرآن، ذلك أنه أبهم الفاعل أو حذفه. ولم يُعهَد حذف الفاعل في الكلام العربي على النحو الذي ورد به الحديث الشريف.

4. التعريض:

وهو من الأساليب العربية العريقة التي كانت تستعملها العرب في كلامها كثيرًا، (فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح)[3].

ويقال: عَرَّض لفلان وبه إذا قال فيه قولًا وهو يَعيبه، يقال: عَرَّض تعريضًا إذا لم يبيِّن. والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض التورية بالشيء عن الشيء[4].

1– صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، (780).

2– صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل كم يجوز، (2499).

3- عيون الأخبار، 197/2.

4- لسان العرب، (عرض).

وعدَّ ثعلب من لطافة المعنى الدلالة بالتلميح، إذا قال: "ومِن لُطف المعنى كلُّ ما يدلُّ على الإيحاء الذي يقوم مقام التصريح لمن يُحسِن فهمه واستنباطه.[1]

وقد سلك النبي صلى الله عليه وسلم هذا السبيلُ رأفةً بأمته واحترازًا عن المخاشنة، فكان يصل من خلاله إلى ما يريد، محقِّقًا غرضين؛ أولهما: إفهام المقصود بالخطاب ما أراد من توبيخ وإرشاد، وثانيهما: تعميم الخطاب، وإخراج اللفظ من إسار مناسبته، لينطلق في رحاب المعنى في بيان يعمُّ ويشمل السامعين مَن كانوا وأينما وُجِدوا.

ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها إذ قالت: صَنَعَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم شيئًا فتَرَخَّص فيه، فتنزَّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فخطب، فحمد الله ثم قال: "ما بَالُ أَقْوامٍ يَتَنَزَّهُونَ عن الشَّيءِ الذي أَصْنَعُه، فواللهِ إنِّي لأَعْلَمُهُم باللهِ وأَشَدُّهُم لَه خَشْيَةً"[2].

فالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يصرِّح بذكر المقصودين بالخطاب كي يأخذوه لأنفسهم، ويعلموا المقصود منه بفهمهم وإدراكهم.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لابن اللتبيَّة الذي كان يجمع الصَّدَقات، فجاء يومًا وقد نال من هدايا النَّاس ما نال، فبلغ ذلك النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فغضب وقام خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أمَّا بَعدُ فإنِّي أستَعمِلُ الرَّجُلَ مِنكُم على العَمَلِ ممَّا ولَّانِي اللهُ، فيأتي فيَقولُ: هذا لَكُم وهذهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ إليَّ" ويستكمل النظم البديع للحديث من خلال آخره: "أَفَلا جَلَسَ في بَيتِ أَبِيهِ وأُمِّهِ حتَّى تأتِيَه هَدِيَّتُه"[3].

لا نقف في هذا الحديث على ذكر لاسم الرجل المقصود، فقد عرَّض النبي صلى الله عليه وسلم ليفهمه ما أراده من زجر ووعيد، وليعمَّ الحكم على فاعل هذه الخطيئة كائنًا من كان .

1- قواعد الشعر، ص: 44.

2- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، (5750).
وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب علمه صلى الله عليه وسلم بالله تعالى وشدة خشيته، (2356).

3- صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب احتيال العامل ليهدي له، (6578).

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في جماعة من المنافقين بلغه عنهم تعمُّدهم التخلُّف عن صلاة الجماعة: "لَيَنتَهِيَنَّ أَقْوامٌ عن وَدْعِهِمُ الجَمَاعات أو لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلى قُلُوبِهِم ثمَّ لَيَكونُنَّ مِنَ الغافِلين"[1].

وقد رجَّح العلماء التعريض على التصريح، وذكروا لذلك وجوهًا نستشفُّ ظلالها في الخطاب النبوي:

أحدها: أنَّ النفس الفاضلة لميلها إلى استنباط المعاني تميل إلى التعريض شغفًا باستخراج معناه بالفكر.

ثانيها: أنَّ التعريض لا يُنتَهَك معه سجف الهيبة ولا يرتفع به ستر الحشمة.

ثالثها: أنَّه ليس للتصريح إلا وجه واحد، وللتعريض وجوه وطرق عديدة.

رابعها أنَّ النهي الصريح يدعو إلى الإغراء، بخلاف التعريض كما يشهد الوجدان[2].

نتائج البحث:

تعدَّدت الأنماط الأسلوبية التي انتهجها النبي صلى الله عليه وسلم متوخِّيًا منها الوصول إلى السَّامع، قلبهِ وعقلهِ ووجدانهِ، فاختار لكلِّ غرض وحكم أسلوبًا لتحقيق ما أراد من تبليغ.

وقد أظهر البحث توظيفَ النبي صلى الله عليه وسلم الطاقاتِ الإيحائيَّةَ للألفاظ والعبارات في تحريكِ المشاعر، وشحذِ القوى الذهنية، وتشويقِ المخاطب لتلقّي الفكرة من خلال أسلوبه غير المباشر.

وتجلَّت من خلال البحث الأمور الآتية:

1. تحقَّق بالأسلوب الإيحائيِّ بلاغةٌ في الكلام ونكتٌ وفوائدُ في البيان، وهذا مالا يمكن تحقيقه بالتعبير المباشر، إذ التعبير غير المباشر يعطي المسألة عمقًا وجلالًا ويكسوها طراوة وجمالًا.

1– سنن ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب التغليظ في التخلف عن الجماعة، (794).

2- أنوار الربيع، 67/6.

2. يكتنف الأسلوبَ الإيحائيَّ غموضٌ يحتاج إلى جهد وإمعانِ نظرٍ. وبفكِّ رموزه وإدراك أبعاده يصل السامع إلى حالة استشفاف وانفعال بلذة الكشف بعد معرفة الحقيقة، وفي هذا تشويق وتعميق وجمال بين التلميح والتصريح.
3. كان حُسنُ الإيجازِ سمةً ميَّزت الخطاب النبوي عامَّةً، وتجلَّى في أوضح صُوَره في كثافة الإيحاء الذي ولَّده استثمار الدلالة الذاتية للكلام متسقة مع الدلالة السياقية.
4. ويتجلى في بعض صور الإيحاء تحقيق الوظيفة الخلقية وطابعها التهذيبي في الأدب النبوي، تلك المتمثِّلة في تجنُّب المفاحَشة، من خلال التظليل على المعاني، والاستغناء عن التصريح بالتلميح.

المصادر والمراجع

1. أسرار البلاغة: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق محمد محمود شاكر، شركة القدس، ط1، نشر دار المدني، جدة 1412هـ –1991م.
2. الأسلوب والأسلوبية: عبد السلام المسدِّي، الدار العربية للكتاب، ط3.
3. الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط8، 1411هـ–1991م..
4. أنوار الربيع في أنواع البديع: علي صدر الدين بن معصوم المدني، تحقيق شاكر هادي شكر، النجف الأشرف، 1388هـ –1953م.
5. البرهان في وجوه البيان: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، بغداد 1387هـ –1967هـ
6. البيان والتبين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1367هـ –1948.
7. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق حفني محمد شرف، القاهرة، 1383هـ
8. الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1956م.
9. دفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة، بيروت، 1945م.
10. دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، ط5، القاهرة، 1372هـ.
11. الرسالة العسجدية في المعاني المؤيدية: عباس بن علي بن أبي عمر الصنعاني، تحقيق عبد المجيد الشرفي، ليبيا – تونس، 1399هـ –1976م.
12. سنن ابن ماجه: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، دار السلام، الرياض.
13. سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الجنان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1409 هـ – 1988م.
14. سنن الترمذي: أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار السلام، الرياض.
15. سنن النسائي/بشرح السيوطي/: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق مكتب تحقيق التراث، دار المعرفة، بيروت، ط5، 1420هـ.

16. صحيح البخاري: أبي عبد الله محمد بن إسماعي البخاري الجعفي، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار بن كثير، دار اليمامة، دمشق، بيروت، ط4، 1410هـ-1993م.
17. صحيح مسلم بشرح الإمام النووي: الإمام النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، مكتبة الغزالي، دمشق.
18. صحيح مسلم: أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
19. الصورة الفنية في الحديث النبوي: أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط2، 1427هـ- 2006م.
20. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط2، القاهرة، 1374هـ، 1955م.
21. عون المعبود شرح سنن أبي داود: أبو عبد الرحمن محمد أشرف الصديقي العظيم أبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1415هـ.
22. عيون الأخيار: ابن قتيبة، دار الكتب المصرية، القاهرة.
23. فيض القدير شرح الجامع الصغير: العلامة المناوي، دار الفكر، بيروت.
24. قواعد الشعر: أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، 1367هـ-1948م .
25. لسان العرب: ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ-1994م.
26. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، القاهرة 1358هـ-1939.
27. موسوعة النظريات الأدبية: نبيل راغب، أدبيَّات، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، 2003.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2016/5/24